فى سبيل الفن

بقلم الرسام المصرى الشهير الاستاذ شعبان زكى

أعط طفلا قرطاساً وقلماً فما أسرع ما يبدأ بالتخطيط ، وما أسرع ما يظهرك على رسمه وهو فخور . فخور بأن جهده الذى ترى دليل رغبة عنده فى التعبير عن غرض له معلوم .

هذه الرغبة الجميلة عند الأطفال مهملة جد الاهمال عند الآباء . فهم يميلون إلى اعتبار أن الوقت المبذول فى تعلم الرسم عبث وضياع

كان هذا الاعتبار سائدا فى العالم منذ نصف قرن حيث بدأت ظاهرة الفن الايضاحى والفن الاعلانى تظهر فى عالمى التأليف والاتجار . ونقول — زيادة فى الايضاح — إنه منذ خمسين عاماً لم تكن الصحف لتحوى صورا فنية اللهم إلا بعض رسوم ضئيلة فى الاسبوعية منها ، كما كانت وسائل النسخ ركيكة باهظة التكاليف إلى حد جعل الناشرين أنفسهم يفقدون الحماسة فى هذه السبيل .

أما اليوم فالحاجة ماسة على الدوام إلى الصور والرسوم — فى كل فرع من فروع الحياة ولشتى الأغراض — بل ان أسباب هذه الحاجة لتطرد فى الزيادة على مر الأيام .

***

فالطفل الذى يشجعه عائله على مزاولة الرسم — وهو صغير — واصل حتما اذا هو ثابر — إلى درجة يجد نفسه قادراً بها على الدخول فى مضمار الحياة ، وانه لمضمار جليل الشأن فى هذا الزمان

لقد كان يقال دائما إن الفنانين كالشعراء يولدون كذلك ولا يهيئون ! على أن الواقع ليس هكذا على الدوام . صحيح أن فى الناس كثيرين ينشأون ذوى مواهب فنية تجعلهم بحيث يأتون فى الرسم بما لا يستطيعه غيرهم ممن لم يؤتوا مواهبهم — ولكن التجارب قد أثبتت أن الطالب غير الموهوب قد يفوق بالالتفات والجد أولئك الموهوبين — بل وقد يصل — بطول الدرس — إلى حيث يحتل معهم أول الصفوف ، وقد يأخذ فيهم مركز القيادة فى بعض الأحايين .

من الجائز المقبول اذن أن يقال : إن لأى طالب أن يتعلم الرسم . وليس يعوزه فى هذا المطلب غير الرغبة فى العلم (علم الفن) وأستاذ متمكن يهديه .

ولأن تستطيع أن ترسم أو تصور كل ما يعن لك مما تتخيل أو ترى أو تحس، أمر محبب كما لو كنت بحيث تستطيع العزف على الكمان أو العود أو المزمار — ولكنك لن تجد راغباً فى سماعك كعازف، إلا حين تكون القادر المجيد على العزف — وكذلك أنت لن تكون الرسام الكبير مالم ترج بضاعتك فى المعارض — أسواق الفنون

***

من كان ذا ولع بالموسيقي فواجبه أو واجب أولياء أمره أن يغذوه على الدوام بعذب النغم ، ومن كان مشغوفاً بالرسم والتصوير فعليه أو على ذويه أن يرسلوه بين الخطوط والألوان، وان فى العالم اليوم لشباباً كثيرين ليسوا من الأعلام المشهورين لكنهم يربحون — كرسامين موضحين أو مصممين فى فن الاعلان مثلا — من مائتى جنيه الى ثمانمائة فى العام ، ومن بين الصفوف التى تضم هؤلاء الشبان يخرج الجهابذه الأعلام

ذلك شأن ناحية من الفن الجميل ، ونقصد بها فن الاعلان ، وان مصر لمحرومة كل الحرمان — وحرمانها هذا هو الذى يدعو القادرين المخلصين أن يقوموا بالواجب مشفقين ، وهو الذى يحدوهم أن يقاوموا المحال فى هذا السبيل

***

ان الرواج المحسوس فى ميدان الصناعة والتجارة اليوم — ولا نقول فى كل أنحاء الميدان — انما هو نتيجة مباشرة لفن الاعلان . كما أن فن الاعلان مدين كذلك لهذا الميدان الذى وسعه بكل ماحوى من خطوط وألوان . وانا لاندرى أيهما الأبر على التمام ! فان أحدهما ـ مستقلا عن الآخر ـ لايدر بما يدرانه مشتركين ـ فالتعاون بينهما كالتعاون فى كل ماعداهما ، أصل الخير فيهما والاقبال .

قد يقول البعض إن المادة متلافة لكل فن ـ فاحتكاك الفن بالمادة فى مثل هذا الميدان يقضى على روح الفن ولو بعد حين ... ! ونقول نحن إن فى فن الاعلان إعلانا

للفن تقرؤه الجماهير فى يسر وفي كل غدو و رواح ، وفى فن الاعلان تحس هذه الجماهير بالجمال والفن قبل أن تدرك منه الهدف المرسوم - يكون فن الاعلان عاملا فى ترقية الاذواق فى البيئة التى ينتشر فيها بقدر ماهو عامل فى ادخال المسرة بما ينطوى عليه من بهجة الالوان الى جمال التأليف الى روح الابتكار

تلكم المزايا فيه ملازمة له مذ كانت النفوس بطبيعتها ميالة الى الرسم ، و لزامها من يجعله أداة صالحة للرواج على مر الدهور

فاذا التفت الى ذلك الفن الفنانون، و اذا أدرك الممولون منا تلكم المزايا الجسام، فما أيسر أن يوجد بمصر (فن الاعلان) . وما أسرع ما يصل الرقى أساليب الطباعة و النشر فى قطرنا العظيم ، وما أجل ما يدر من الخير على كثيرين

و بذلك تصبح مصر، وهى لا تقل عن أمم الغرب التى أخذت تدين اليوم بفن الاعلان، في جميع مرافق الحياة - فى الاقتصاد وفى الدين وفى السياسة وفى كل ما يخطر بالبال ، حتى لقد باتوا يسمون هذا العصر بعصر الاعلان

فهل لفنانينا أن يعملوا معنا على نشر روح الفن من هذا السبيل ، وهل لممولينا أن يدركوا هذا الخير العاجل الوفير ؟

ضاحية المطرية (القاهرة) شحاته زكى

أطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة كتاب

العقاد

ع ٦ — ٢٣

هذى طباع الناس معروضة
فخالطوا العالم أو فارقوا »
« أبو العلاء »

ذاع فى فجر نهضة أوروبا أسماء ثلاثة من أساطين الكتاب ، عدوا — بحق — من أكبر مجددى عصر الآداب ، وهم « دانتى » خالق اللغة الايطالية ، و « بترارك » و « بوكاتشو »

قد اشتهر دانتى بكتابه المرسوم برسالة الغفران La Comedie Diuine وهو الذى احتذى فيه نهج أبى العلاء فى رسالته المعروفة بهذا الاسم ! واشتهر « بترارك » بشعره ونثره الذائعين وهما — عند الايطاليين — فى أعلى طبقات البلاغة !

أما « بوكاتشو » فقد اذاع صيته ، وخلد ذكره ، كتابه الفذ ، « ديكمرون » وهو مجموعة قصص خالدة ، جمعت إلى رشاقة الأسلوب أفتنان الرواى و براعة الساحر ، وكان لها أكبر أثر فى كتابة قادة الفكر فى أوروبا ، أمثال « موليير » و « فولتير » و « جوتييه » وغيرهم — وهم كثيرون — فترسموا خطاه وجعلوا من بعض هذه القصص ، نواة لمؤلفات رائعة كتب لها الخلود

العجوز وتقويمه السنوي

كان فى مدينة « بيزا » قاض مشهود له بالذكاء والكفاية ، ولكنه — رغم ذلك — على جانب عظيم من الضعف وخور العزيمة ، وكان بالغاً من الغنى أقصى حد ، واسمه

«ريشارد دى كوينتزيكا» Rehard de Quinzica، وكان يظن أن سعادته لا ينقصها سوى الزواج ، حاسباً أن طبيعة جسمه لا تزال قادرة على أداء ما يتطلبه من فروض، كما يؤدى عمل القضاء الذى يزاوله بحذق وكفاية ، فجد فى طلب الزواج باحثاً عن زوج حائزة مزيتى الجمال والشباب ، وقد كان — على العكس من ذلك — جديراً أن يبتعد جهده عن هاتين المزيتين لو عقل (١) !

اهتدى إلى طلبته ووجد الفتاة التى كان يتخيلها وهى « بارتلومى ابنة السيد لوتوجالندى» وكانت على الحقيقة من أجمل نساء « بيزا » وكان وجهها — لقسامته وصباحته — أجمل وجه فى عالم الحسن :

تمت حفلة العرس ، ودخل القاضى العجوز على الآنسة الشابة، وبدأ معها التمرين المحبوب، ولم يكد ينتهى منه حتى خارت قواه وبلغ ضعفه أقصاه!

أجهده وأنهك جسمه تمرين واحد . فما العمل اذن ؟ حاول فى الغد أن يعوض ما فقد من قواه المنهوكة فتهافت على شرب النبيذ وغيره من الأشربة التى تقوى الجسم، فلم يجد شيء من ذلك

وثمة بدت له حقيقة أمره وعرف مدى ضعفه وعجزه عن الوفاء بحق زوجه الفتاة ، فطفق يلتمس الحل للخروج من هذا المأزق الحرج ويعمل فكره وذكاءه للوصول إلى طريقة يستر بها ضعفه وعجزه عن زوجه . فاهتدى إلى طريقة فذة هى أن يدخل فى روعها أن فى السنة أياماً خاصة لا يجوز للزوجين فيها أن ينعما بلذات الزواج . وعثر

---

(١) ما أجمل قول المعرى فى هذا المعنى :

إذا كانت لك امرأة عجوز فلا تأخذ بها أبداً كعابا
فان كانت أقل بها وجه فأجدر أن تكون أقل عابا

على « تقويم » قديم من تلك التقاويم المطبوعة لتدريب الأطفال على القراءة، وزاد على تلك الأيام أياماً حتى كاد يجعل العام كله أعياداً ومواسم لا يجوز فيها للزوج أن يدنو من زوجه، حتي لا يقعا فى إثم أو يرتكبا خطيئة. فقد أضاف اليها أيام الذكرى وأيام الصيام وأصوام الفصول الأربعة وأيام الآحاد الخ الخ .

حرمت زوجه من لذات الزواج فضاق صدرها وضوعف سخطها ونقمتها ولم ينس الزوج أن يرفه عنها بوسائل مختلفة فكان — بين حين وآخر — يخرج معها إلى حقوله « فى الجبل الأسود » ويتنزهان معاً على شاطىء البحر

وفى ذات يوم ابتكر نزهة لطيفة لملأ قلبها سروراً وفرحاً . فاصطحبها معه إلى البحر لصيد السمك بعد أن أعد لهذا الأمر عدته — وأحضر سفينتين كبيرتين احداهما له ولأصدقائه الأعزاء والأخرى لزوجه وصواحبها، وشرعوا فى الصيد وطاب الهواء وأبحرت السفينتان مسافة بعيدة وصفا الوقت وعم الحبور فلم يشعروا أنهم أوغلوا فى البحر وبعدوا عن الشاطىء كثيراً . وأنهم لكذلك إذ دهمهم قرصان معروف فى ذلك الزمن بسطوته وشدة بطشه اسمه « باجامين دى مونيجوى » فقطع عليهم هذا السرور .

قصد القرصان إلى سفينة النساء وأجال بصره فيهم فلم يجد أجمل ولا أبدع من زوج القاضى، فأسرع اليها واختطفها (١) — على مرأى من الجميع — ثم عاد أدراجه فرحاً بظفره دون أن يتصدى له أحد .

صرخ النساء وولول الشيخ القاضى وبلغ به الأسى والغم من هذه الكارثة مبلغاً لا يوصف . حاول بعد ذلك أن يهتدى إلى مقر زوجه المخطوفة فلم يفلح

***

أما « باجامين » فقد بهره جمال الفتاة وسلب لبه، فحمد الله على ظفرة بهذا الكنز النادر المثال وسهر عليها يرعاها ويطمئن قلبها ويستعطفها عليه ويبثها وجده وهيامه بها ويغريها عن زوجها الشيخ ، حتى أقبلت عليه .

ولم يكد يجن الليل حتى قلب عليها جميع لذات الزواج — على اختلافها — ومرت

---

(١) انظر صفحة ٨٥

الأيام فلم تر منه اهتماماً بسبت ولا أحد ولا جمعة ولا عيد ، رأت كل الايام والشهور عنده سواء لانها كلها صالحة لأداء التمارين المحبوبة، لانه لا يعرف بقويم زوجها السنوى ولا يدين بمثل تلك الترهات !

قصد الفرسان الى مقاتلة القساة

فراد حبها . حين علمت أنها ارتاحت — إلى الأبد — من ذلك الكابوس الثقيل الذى طالما لجأ اليه زوجها ليتخلص به منها ، وزاد هيامها بالقرصان حتى نسيت كل شىء سواه — فأصبحت لاتذكر « الشيخ » إذا مر بخاطرها — إلا مزدرية ناقمة .

***

أما القاضى الشيخ ، فقد واصل البحث عنها دائباً غير وان ولا يائس من العثور عليها ، حتى اهتدى إلى مقرها بعد جهد . ولم يصل اليه إلا فى المساء ، ورأته الفتاة — مصادفة وهى مع عشيقها — فأخبرته بمجىء زوجها ورسمت له الخطة التى يتبعها معه ، وزادهما ذلك شغفاً واقبالا . قضيا ليلة بهيجة ناعمين بالضم والعناق والتقبيل إلى الصباح .

فلما جاء زوجها إلى منزل القرصان — فى اليوم التالى — قابله القرصان هاشا باشا وسأله عما يريد ، فأخبره بقصته كلها ، وختمها متوسلا ضارعا اليه أن يرد له زوجه المحبوبة التى لا يستطيع السلو عنها ، ووعده بأعطائه فوراً كل ما يريد من مال لافتدائها — بالغة ما بلغت تلك الفدية —

فالتفت إليه القرصان ضاحكا وقال — :

« إنى أرحب بك ياسيدى ولا أكتمك أن عندى امرأة شابة ، ولكنى أجهل أنها زوجك فلم يسبق لى شرف التعرف بك ولا بها . منذ جاءت إلى — وبما أنى أرى من ملابسك وسيماك دلائل الشرف والنبل ، فانى أقدم لك ماأستطيعه من صنيع . فأسمح لك برؤيتها . ولا شك أنها ستعرفك من النظرة الأولى إن كنت زوجها حقاً ، ومتى اعترفت بذلك ورضيت بالعودة معك ، سمحت لك بها عن طيبة خاطر ، تاركا لك حينئذ تقدير الفدية التى تسمح بها . وإنما يدفعنى إلى ذلك ماألمحه على وجهك من دلائل الشرف .

ولكنها إذا لم تعترف بأنك زوجها ، أو اعترفت بذلك ثم رفضت الذهاب معك ، فانك حينئذ ترتكب أشنع الخطأ إذا أصررت على أخذها قسراً . على أننى لن أسمح لك بذلك . فهى شابة وجميلة ، والشباب والجمال حكمهما النافذ ، وليس فى قدرتى أن أفرط فيها أو أرغمها على شىء لاترضاه ! »

فقاطعه « ريشار » قائلا — :

كن على يقين أنها زوجى ، ومتى جمعتنى بها . ظهرت لك حقيقة ماأقول واضحة، وسترى كيف ترتمى على معانقة مقبلة متشبثة بعنقى وذراعى . أنى على ثقة من ذلك ولذلك ترانى لاأتردد لحظة فى قبول هذا الشرط

فقال القرصان — :

هذا حسن ، فاتبعنى لتراها إذن!

***

وثمة أدخله القرصان فى حجرة ثانية ونادى السيدة فحضرت كالكوكب المؤتلق من الحجرة المجاورة ، وأشرق جمالها فملأ الحجرة نوراً وبهجة . ثم حيت زوجها تحية فاترة، كأنها لم تعرفه ولا رأته من قبل ، وكأنه لايستحق أن تخاطبه بكلمة واحدة!

ولا تسل عما أصاب زوجها القاضى من الدهشة والحيرة من هذا البرود العجيب الذى قابلته به ، وما كان يدور بخلده لحظة واحدة أن يصدر مثله من مثلها —

على أنه لم يلبث أن تلمس لنفسه بعض العزاء فقال — : « لعل الآلام والأحزان التى لازمتنى منذ اختطفت منى إلى اليوم قد غيرت شكلى تغييراً تاماً ، فلم تعد تعرفنى» وبعد أن مر بخاطره هذا الهاجس . التفت اليها قائلا — :

« آه ياصاحبتى العزيزة » !

« كم كلفتنى تلك النزهة التى أعددتها لك لادخل بها السرور على قلبك حين تتمتعين بالصيد فى البحر!

كم كلفتنى تلك النزهة من ثمن فادح من الحزن والألم منذ تلك اللحظة المروعة التى فقدتك فيها . آه ! كم كنت قاسية ممعنة فى القسوة . إذ ترينى بعد هذا الغياب الطويل فتصمتين ولا تنبسين بحرف واحد ، كأنك ماعرفتنى فى حياتك قط ؟ ، ألا ترحبين بزوجك «ريشارد» الذى جاء اليك ليرجعك معه إلى « بيزا » بعد أن يدفع عنك الفدية إلى ذلك الرجل الأمين ، الذى أبت عليه طيبة نفسه إلا أن يترك تقديرها كما أشاء ! »

***

نظرت اليه « بارتلومى » ، وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة ، ثم قالت له — :

« أيعنيني حضرة السيد المحترم بهذا الكلام ؟ أنعم النظر فى جيداً ، فلا شك أنك واهم فى حسبانك، ولعلك قد خلطت بينى و بين زوجك ، فانى لاأذكر أننى رأيتك مرة واحدة قبل الآن !

فكرمليا ياعزيزى فيما تقول . تثبت من رؤيتى جيداً فأنك — إن فعلت — تحققت أننى لست صاحبتك التى تعنيها !

معذرة ياسيدى إذا لم أنعم النظر فيك حين دخولى . فقد كانت النظرة الأولى كافية للتثبت من أنك لست زوجى ! »

***

حار القاضى المسكين أمام هذا الانكار الجرىء ، وأطرق اطراقة قصيرة ، ثم عن له أنها لاتتكلم هذا الكلام إلا أنها فى حضرة « باجامين » القرصان ، اتقاء شره فطلب اليه راجياً أن يسمح له بالبقاء معها فى حجرة خاصة ، لينالا من الحرية فى القول قسطاً أوفر .

وما كادا يدخلان الغرفة التالية حتى جلسا ، و بدأ الشيخ الطيب القلب يخاطب زوجه ، وعيناه شاخصتان إلى وجهها ، وهى دائمة النظر إلى الأرض — :

« هيه ياملكة قلبى ، ياحبيبتى ، يازوجى المخلصة ، ياأملى الحلو ، ألا تزالين جاهلة صاحبك « ريشارد » الذى يفديك بنفسه . خبرينى كيف نسيتنى بهذه السرعة؟هل وصل بى تغير الملامح إلى حد أن تجهلينى ؟

تثبتى من رؤيتي مستثيبة .فانى على ثقة من أنك تعرفيننى بأدنى نظر .

***

لم تكد السيدة تسمع قوله حتي أغرقت فى الضحك ، ولم تدع له فرصة لمواصلة حديثه ، بل قاطعته قائلة — :

« إنك لتكون بالغاً من السذاجة أقصى حدودها إن حسبت أن ذاكرتى قدوصل بها الضعف إلى حد أن انساك .فلا أعرف من أول وهلة أنك زوجى« ريشار ددى كوينتسيكا»

« على أننى إذا أغضيت عنك وتجاهلتك فلست حقيقاً أن تشكر منى ذلك ، وأنت الذى تجاهلنى طوال تلك المدة التى قضيتها معك !

ولو انك تحبنى حقا — كما تحاول أن تقنعنى بذلك — أولو أنك تؤثرنى كما تزعم — إذن لعاملتنى معاملة الجديرة بزوج يحب زوجه — وهى فتية فى ميعة الشباب وبضرته ، تحب أن تنال حظها من متاع الحياة ولذاتها .

أفكنت تجهل إذن أن فتاتك فى حاجة الى أمر يمنعها أن تطلبه منك حياؤها الطبيعى المركب فى بنات جنسها جميعا ؟

أنسيت تلك الطريقة المضحكة التي طالما لجأت إليها لتخلص بها دائما من حاجاتى التى لم تقضها ؟ فاذا كنت تفضل تعاليم القانون ونصوصه — على المرأة ، فقد كنت خليقا أن لاتقدم على الزواج !

ولكن ، كيف أقول ؟

انى ما اعتبرتك قاضيا قط ، بل « خالق احتفالات ومواسم وأعياد » فقد ظهرت لى براعتك وخبرتك الواسعة بأيام الصوم ومواقيت العبادة !

ألا فلتعلم ياسيدى أن دساكرك وعمالك لوظفروا منك بمقدار ماتجود به على من أيام الراحة ، أو لو أنك هجرت دسكرتك كما هجرت حديقتى الصغيرة دون أن تتعهدها بالزرع لما استطعت أن تظفر فى نهاية العام بحبة واحدة من القمح !

ولكن الله أكرم من أن يترك أرضى بلا حرث. لهذا شاءت ارادته — سبحانه — أن يتيح لى فرصة الوقوع بين يدى السيد « باجامين » الذى لايعرف شيئا مما تعرفه من الأعياد والمواسم ولا يعنيه من أمرها شيء . أما أنت فقد رأيتك تواظب على الاحتفاء بها والبطالة لاجلها بحماسة وغيرة لم أجدهما فى أتقى الاتقياء والزهاد : وتأبى إلا أن تتنسك فيها مفضلا حقوقها على حقوقى

أما هذا فليس يعرف جمعة ولا سبتا ولا عشية عيد ولا شيئا من أصوام الفصول الاربعة ولا أى عيد من أعيادك التى لاتنتهى ، بل هو دائب ليل نهار يحرث أرضى بلاملل غير مقصر ولا وان ، وقد قضينا فى هذه الليلة قسطا من التمرين المحبوب . اذن فلا تنقم منى ان ترانى راغبة فى الاقامة طول حياتى مع هذا العامل المجد ! فان لى ذوقا فى الحياة وقد صممت على أن أكون عاملة مجدة مادمت شابة ، مرجئة أمر الأعياد

والمواسم الى زمن الشيخوخة ! ألا إن خير ماتفعله الآن هو أن تعود ياسيدى أدراجك على جناح السرعة !

فلترحل بلاوناء ، ولتصحبك سلامة الله فى عودتك فانك لن تحتاجنى فى الاحتفال بأعيادك ومواسمك التي تبتهج بها، كما أننى لن أحتاجك فى أيام العمل التى انعم بها كذلك!»

***

صعقت هذه الصراحة الجريئة قلب « ريشارد » المسكين ، ولقد حدثته نفسه — مائة مرة أن يقاطع كلامها فمنعه عن ذلك أنه فى منزل أجنبى ،فى منزل قرصان.

فرأى من الحتم عليه أن يعتصم بالصبر ، فلما انتهت من خطبتها قال لها بلهجة المحب العانى — :

« ماذا تقولين يازوجى المحبوبة ، وكيف تحكمين ؟

خبرينى كيف نطقت بهذا الكلام الجرىء ؟

هل نسيت شرفك وشرف أسرتك ؟

أفى حدود الامكان أنك تفضلين الاقامة مع هذا الرجل وتكونين له خليلة؟ وتعيشين طول عمرك فى أرجاس الخطيئة ، مؤثرة ذلك على أن تعودى إلى « بيز » حيث تعيشين مع زوجك امرأة شريفة ؟

فكرى أنت أن « باجامين » اذا زهد فيك لم يترد فى طردك من بيته ، أما أنا فسأظل وفيا معك لا أتحول عن حبك ماحييت متى رجعت معى الى « بيز! »

فاذا حان موتى فستظلين ربة البيت وسيدة منزله ! أفيجدر بك أن تنسيك اذن رغبة جامحة ولذة شائنة بجرمة شرفك وزوجك الذى يحبك أشد الحب ؟

كلا ياحبيبة قلبى، يجب أن تكفى عن ذلك العزم الشائن وأن لاتترددى لحظة واحدة فى العودة معى ، وأنى لأعدك — بعد أن عرفت رأيك الآن — أن أعمل على اشباع نهمتك وفق ماتشتهين . سأهجر « تقويمى السنوى » الى الأبد مادام فى هجره مرضاتك فهل تقبلين ضراعتى اليك ياربة الحسن ، وهل تقلعين عن عزمك وتذهبين مع زوجك الذى لم ينسك منذ اللحظة التى اختطفوك فيها منه فأصبح نهب الاحزان والآلام والضجر ! »

* **

فأجابته الزوج — :

« الآن — وبعد فوات الوقت — جئت تحدثنى عن الشرف ، وقد كان على أبوى أن يعنيا بأمره من قبلى . حينما شرعا فى تزويجى منك دون أن يستشيرانى فى ذلك ؟ فاذا كانا لم يعنيا بأمرى حينذاك فلست أعنى بأمرهما الآن !

أما أنت فهدىء روعك ولا تشغل بالك بأمرى ولا بأمر أهلى ، على أننى مضطرة الى مصارحتك بالحقيقة كاملة :

اعلم أننى أشعر الآن كأننى زوج القرصان الشرعية ، وقد كنت أشعر وأنا معك فى « بيزا » شعورا صادقا أننى لست لك إلا « خليلة » أو أننى امرأة لم تضعها فى بيتك الا للزينة ، كنت أشعر أنك تحتقرنى وتفعم قلبى بالآلام بلا شفقة باعراضك عنى .

أما « باجامين » فهو رجل آخر ، هو لى الزوج الحق ، إنه ليضمنى طول الليل بين ذراعيه ضما شديدا و يلاعبنى بألف طريقة ، فاحكم بنفسك أيمكن أن أندم بعد على فراق مثلك وتقول — : « إنك ستبذل جهدك فى تلبيته رغباتى ، فما اكثر شوقى الى تعرف ذلك السر الذى اهتديت اليه فأصبحت قادرا على الوفاء بهذا الوعد ؟ هل أحالتك المصادفات الخارقة — بعد أن غبت عن عينك — من شيخ فان الى جبار فتى :

اذهب لطيتك واعمل بما أقول لك ، ولا تفكر إلا فى الأيام القليلة الباقية لك فى هذا العالم ، حتى يوارى القبر فيريحك من ضعفك واصفرارك وهزالك !

بقى لى أن أقول لك — مطمئنة الى تقرير ما أقول — : إن « باجامين » إذا طردنى فلن يكون بيتك مأوای الذى اتطلع للعودة إليه ، فان من العبث أن يجد فيك الفاحص — بعد أن تعصر — قطرة واحدة من ماء الحياة تجرى فى جسمك كله — كما أثبتت لى التجربة التى اتاحت لى فرصة ممارستها شقاوتى وتعسى ، إذن ، فاطرد من ذهنك كل فكرة من هذا النوع ، وأيقن أننى سأبحث عن ضالتى فى كل مكان إلا مكانك ، على أننى لا أخشى أن ينصرف عنى قلب « باجامين » فانى عارفة بعواطفه وحقيقة شعوره نحوى . وأنى لأكرر لك القول مرة أخرى أن فراقى قد بت فى أمره ؛ وأنى جديرة أن أعيش هنا . حيث لا نعرف للاعياد والمواسم وأيام الصوم معنى .

فارحل إذن ولا تضع من وقتك اكثر مما أضعت ، وإلا فانى أخرج مستعدية عليك القرصان ؛ قائلة له إنك تريد أن تقسرنى على الذهاب معك ! ! ! »

* * *

ولما رأى السيد « ريشارد » ما لحقه من إساءة « بارتلومى » أدرك خطأه الذى وقع فيه إذ تزوج من فتاة صغيرة لا يتناسب سنها مطلقا مع سنه ، وتفرق بينهما هاوية سحيقة هائلة فخرج من الحجرة خجلا مستخزيا ، يفعم اليأس قلبه

ولما شيعه « باجامين » التفت صاحبنا متمتما بكلمات تدل على أنه قد وعى هذا الدرس القاسى وأدرك شناعة الخطأ الذى وقع فيه .

وهكذا خرج « ريشارد » الطيب القلب ، بعد أن رأى فشل خطته وانهزامه فى التأثير على نفس زوجه ، وكم كان يود أنه لم يضع فى هذا البيت قدما .

قصد الى « بيز » مسرعا بلا وناء ، وقلبه مملوء باليأس والحسرة لما منى به من الفشل فى سفرته ، ولم يلبث أن أنهك جسمه الحزن والألم اللذان سببتهما له خيانة زوجه ! ! !

أما مواطنوه فقد كانوا أبعد الناس عن الرثاء لما أصابه فاتخذوا من السخرية وسيلة الى العبث به والضحك عليه ، فكانوا يشيعونه — فى حيثما ذهب — بقولهم —:

« الغراب الخبيث » « السيد القاضى لا يريد الآن اعيادا »

وقد زادته هذه السخرية آلاما على آلامه فلم يعش إلا أياماً قلائل انتهت بموته !

* * *

ولم يعلم صاحبنا « باجامين » بموت القاضى ، حتى تزوج من تلك السيدة التى كان يقدر لها عطفها و إخلاصها ، ولم يغير عقد الزواج الشرعى من طريقة عيشهما شيئاً . فقد واصلا العمل فى تعهد الحديقة الصغيرة وحرث أرضها بكل ما أوتيا من قوة ، وظلا عائشين معا طول عمرهما ، لا يعرفان شيئاً من أيام الصيام والأعياد ولياليها ! ! !

تمت